العرب
السبت 2020/02/08
السنة 42 العدد 11611

لماذا ينتحر الشعراء مبكرين والفلاسفة في سن متقدمة

نقاش في ندوة بمعرض القاهرة للكتاب: الهوس والاكتئاب ثمن يدفعه المبدعون

الدخان واللهب من الأشياء المرتبطة بالنار، وهي بدورها ارتبطت رمزيا وأسطوريا باسم "بروميثيوس" ومعناه في اليونانية "ذلك الذي يرى المستقبل"، وهما رمزان جمع بينهما الدكتور شاكر عبدالحميد الأكاديمي المتخصص في سيكلوجية الإبداع، ووزير الثقافة المصري الأسبق في عنوان كتابه الجديد الذي خصص له معرض القاهرة الدولي للكتاب أخيرا ندوة لنقاشه.

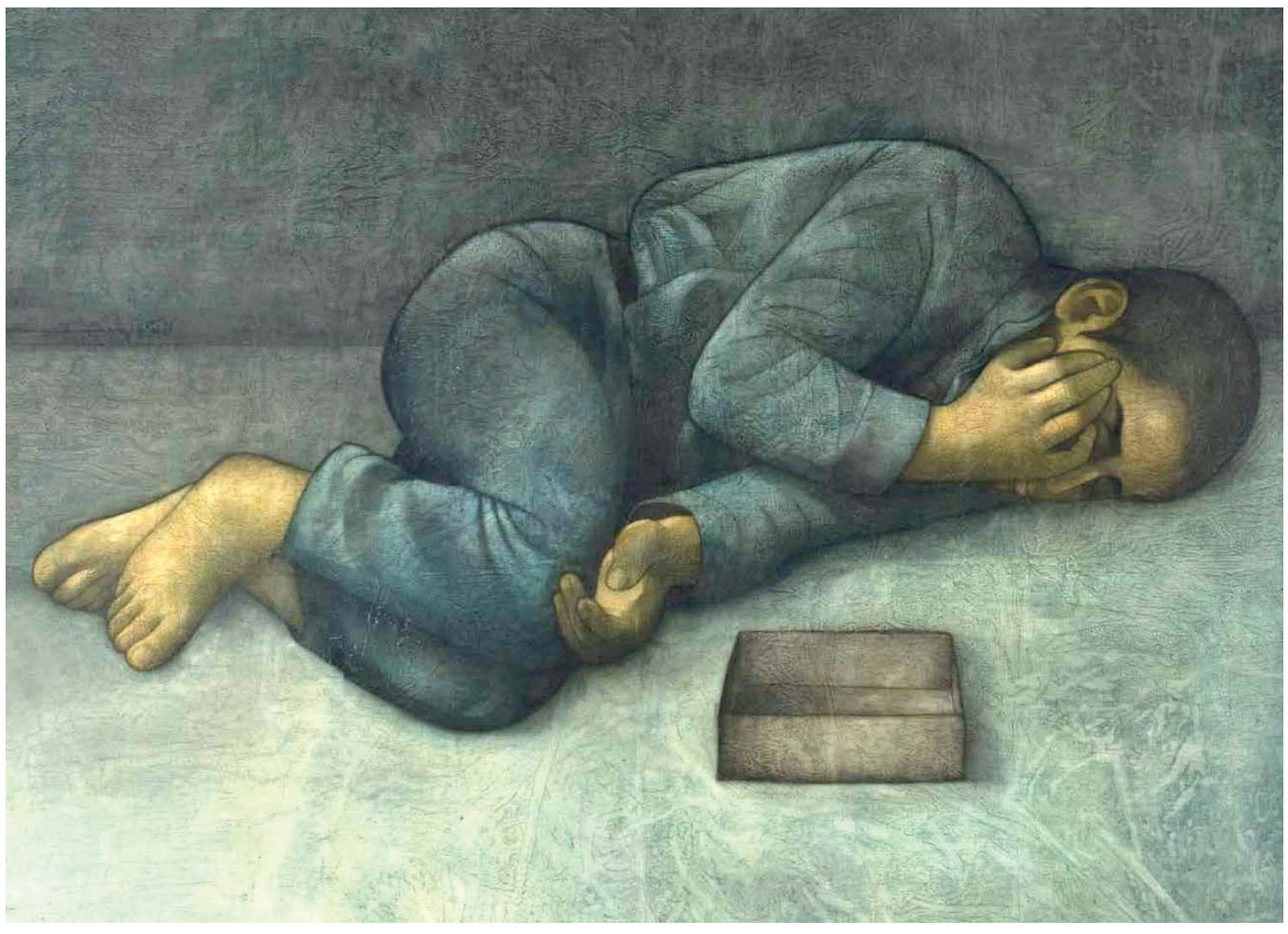

الأدب قد يقود إلى العزلة والجنون (لوحة للفنان إلياس إيزولي)

أحمد رجب

ضمن محور "كاتب وكتاب" بمعرض القاهرة الدولي للكتاب ناقش عدد من الباحثين كتاب "الدخان واللهب.. عن الإبداع والاضطراب النفسي" لشاكر عبدالحميد. وقد أدار الندوة الإعلامي ضياء الدين حامد، وتحدث فيها، بالإضافة إلى المؤلف، كل من الشاعر والمترجم وأستاذ الطب النفسي، عبدالمقصود عبدالكريم، والكاتب والطبيب النفسي إيهاب الخراط.

في البداية أشار مقدم الندوة إلى أن شاكر عبدالحميد يبحث في أحدث كتبه "الدخان واللهب" العلاقة بين الإبداع والاضطراب النفسي، في محاولة لفهم العوامل التي تدفع بعض المبدعين إلى الوقوع أسرى الاضطراب العقلي.

والكتاب، الصادر مؤخرا عن دار العين بالقاهرة، يأتي كمحاولة للاقتراب من هذه الحالة المرضية الخطيرة التي مرّ بها رجال ونساء من أصحاب القدرات الخاصة والمواهب في شتى مجالات الإبداع الأدبي والفني.

وأشار إلى تفسير المؤلف للعنوان بأن الدخان يرتبط بالخفة والهدوء وحالات الانطواء والصمت والكآبة والتأمل وغياب الحيوية والحزن، وكذلك بغياب الوعي من حيث ارتباطه بالمخدرات. بينما قد يرتبط اللهب بالتوهج والحيوية والهوس والانبساطية والحركة والبهجة والفرح.

حالات فردية

قال عبدالمقصود عبدالكريم في مداخلته إن الإبداع والاضطراب النفسي كلاهما حالات فردية، ولا يمكن التعميم فيهما حتى لو كانت بينهما نقاط التقاء، أبرزها أنهما بلا سبب، وكلاهما يحتاج إلى عوامل كثيرة لكي يصل الشخص إلى الاضطراب النفسي أو الإبداع، وأكد على عدم وجود مرض يحول المصاب به إلى مبدع وفنان، فالمبدع في الأصل إنسان معرض للأمراض.

وأضاف عبدالكريم "بصفتي شاعرا ومترجما، لم أعتمد فقط على الأبحاث العلمية، ولكن بحثت أيضا في الكتب، منها الكتاب المقدس وقصيدة المتنبي في رثاء جدته، فوجدته يبكيها بالرثاء وذلك هو البعد الاكتئابي، ويفتخر بنفسه، وهذا هو البعد الهوسي".

وضرب مثلا بقصة وردت في كتاب "الأدب والجنون"، عن جيمس جويس وابنته، التي شخصها الطبيب بالفصام، فسأله والدها عن السبب، فرد الطبيب بأنه عرف ذلك من طريقة كلامها، فقال جويس أنا أكتب بنفس طريقتها. وهذا معناه أن المبدع يتصرف كمريض نفسي، ولكنه يستطيع بإبداعه أن ينقذ نفسه من المرض النفسي.

وقال إيهاب الخراط إن كتاب الدخان واللهب قدم نماذج عملية عن الاضطراب النفسي للشخصيات المبدعة حول العالم، موضحا أن أسلوب الدكتور شاكر عبدالحميد رشيق ومميز، يجمع بين الدقة البحثية والبلاغة الأدبية، حيث تسلط الدراسة الضوء على عدد من المبدعين الذين عانوا من أمراض نفسية، أبرزها الاكتئاب والهوس العقلي ورهاب الموت "الخوف المرضي منه".

كذلك أشار الخراط إلى أن الكتاب يستعيد محاولة انتحار الموسيقار الأشهر بيتهوفن وإصابة تشايكوفسكي بالهوس، ومعاناة شوبان من اكتئاب لازمه طوال حياته. ويذهب إلى أن الفلاسفة يقبلون على الانتحار في سن متقدمة، على عكس الشعراء الذين ينتحرون في سن مبكرة، ما جعل الكاتب يرجح فرضية أن الإقدام على الانتحار نتيجة نقص هرمون الدوبامين المسبب للبهجة والسعادة، نافيا أي علاقة بين الإبداع والانتحار. وينفي الكتاب كذلك العلاقة المزعومة عن ارتباط الإبداع بتعاطي المخدرات.

كما يؤكد على أنَّ الإبداع يحتاج إلى قدر من المرونة العقلية والمثابرة التي تدمرها المخدرات، كما يستعرض الكتاب السيرة الإبداعية لفان جوخ، الذي أنتج مشروعه الإبداعي في نحو عشر سنوات فقط.

ثمن العبقرية

وفي ختام الندوة قال شاكر عبدالحميد إن عنوان الكتاب مستلهم من إشارات وردت في كتاب ميشيل فوكو عن تاريخ الجنون؛ استعرض خلالها جهود طبيب وعالم أعصاب بريطاني هو توماس ويليس كان يعيش خلال القرن السابع عشر وكان يشبّه الاكتئاب بالدخان والهوس بالنار، فالاكتئاب يهبط على الروح فيخنقها كالدخان أما الهوس فيطلق طاقاتها أحيانا على نحو يتجاوز الحدود.

وأوضح عبدالحميد أن كتابه هذا ليس أول إصداراته التي تحدثت عن الإبداع والاضطراب النفسي، فقد أصدر سابقا كتاب "الأدب والجنون"، الذي استعرض فيه بعض أعمال شكسبير التي يوجد بها تصوير من الاضطراب النفسي، وركز فيه على الأعمال الإبداعية، أما كتابه الثاني فيركز على المبدعين أنفسهم، وبالأخص فان جوخ، لأنه كان يجمع بين الإبداع والاضطراب، كما يبدو في رسائله، مشيرا إلى أنه خصص جزءا من كتابه عن اضطرابات فان جوخ، وأمراضه.

وأشار إلى أن الدخان في عنوان الكتاب يرمز إلى الاكتئاب، بينما يشير اللهب إلى الهوس، موضحا أن الكتاب يهتم بالمبدعين الذين أصيبوا بالاضطرابات النفسية ومنهم فان جوخ الذي جمع بين الاضطراب النفسي والإبداع، حيث يوجد فصل كبير يتحدث عنه وعن اضطرابه الذي لم يستطع أحد تشخيصه.

> الإبداع والاضطراب النفسي حالات فردية، ولا يمكن التعميم فيهما حتى ولو كانت بينهما نقاط التقاء

واستعرض المؤلف بعض المحاور المهمة في كتابه، كاشفا عن سبب اختياره عنوان الكتاب "الدخان واللهب"، لافتا إلى أنه أخذه من عنوان "إشارات تاريخ الجنون".

والكتاب يوضح أن الاضطرابات النفسية لا تقتصر على المؤلفين الموسيقيين فقط، لأن الباحث آرنولد لودفيج وجد أن أعلى معدلات الاضطراب الانفعالي كانت موجودة لدى الشعراء بنسبة 87 بالمئة من العينة التي فحصها، وجاء بعدهم الروائيون وكتاب القصة ثم الممثلون، فهناك ثمن للعبقرية يدفعه المبدع، وأن الشعراء هم الأكثر قابلية للانتحار مقارنة بغيرهم من المبدعين بنسبة 26 بالمئة كما أن الممثلين "الأدائيين" يأتون في المرتبة الثانية بنسبة 23 بالمئة في حالات الانتحار، وأن الموسيقيين حلوا في المرتبة الثالثة، وكان مبدعو الفنون التشكيلية هم الأقل عرضة للانتحار.

المبدع وعصره وموقفه

حميد سعيد
كاتب عراقي

قال الإمام علي بن أبي طالب، في أمر يتعلق بالشعر وبالشعراء، أثبت هنا مقولتهِ هذه كما حفظتها من قبل وهي "كلّ شعرائكم محسن، ولو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة ومذهب واحد في القول، لعلمنا أيهم أسبق إلى ذلك" وقبل أن نقف عند مضمون هذه المقولة، لا بد أن نشير إلى ما جاء فيها "لو جمعهم زمان واحد" و- لو - كما يقول أهل اللغة حرف امتناع لامتناع، أي امتناع العلم بأيهم أسبق أو أفضل أو أحسن، لامتناع جمعهم في زمن واحد وغاية واحدة ومذهب واحد في القول.

ومن المؤكد أن لكل زمن، منظومة أفكار في ما تتفق عليه وما تختلف، كما لكل زمن جمالياته، فالقصيدة الهوميرية في الثقافة الإغريقية، هي غير القصيدة الإغريقية في أزمنة أخرى، غير زمان هوميروس، والقصيدة العربية قبل الإسلام هي غير القصيدة التي اقترنت بمرحلة فجر الإسلام، وهي غير قصيدة المدينة العربية، وبخاصة بغداد في العصر العباسي، كما أن المنحوتة السومرية مثلا، هي غير المنحوتة الآشورية، مادة وشكلا وحجما وموضوعا.

ومن المؤكد أيضا، أن هدف المبدع، شاعرا كان أو نحاتا، كما سماه الإمام علي -الغاية- يختلف ليس من زمن إلى زمن فحسب، بل من مبدع إلى آخر، حتى لو عاشا في مرحلة زمنية واحدة.

أما الإشارة التي وردت في المقولة المذكورة، إلى المذهب في القول، فهي تشير بقدر غير قليل من الوضوح، إلى الخيار الجمالي وبخاصة على صعيد اللغة بنى ومعجما، وهذا الخيار لا ينصرف إلى اختلاف زمن مبدع عن زمن غيره، سواء سبقه أم جاء بعده، بل نجده أيضا في المرحلة الزمنية الواحدة وفي جميع الثقافات الإنسانية في الماضي والحاضر، فالمكونات الجمالية في شعر امرؤ القيس مثلا، هي غير المكونات الجمالية في شعر زهير بن أبي سلمى، مع أنهما ينتميان إلى مرحلة زمنية واحدة ومحيط اجتماعي وثقافي واحد، بل إن شاعرين عاشا معا، مثل جرير والفرزدق وتبادلا النقائض على صعيد الفن الشعري، ليس إلا، كما تبادلا احترام كل واحد منهما لإنجاز الآخر، ومع هذا ظل لكل منهما مكوناته الجمالية الخاصة بشعره، والفرق بينهما في مذهب القول، قال به من عاصرهم من العلماء بالشعر، واستمر هذا القول في الفروق الجمالية بين شعر جرير وشعر الفرزدق، في ما جاء بعد زمنهما من زمن ومن جاء بعدهما من نقاد الشعر.

وهنا أود أن ألفت النظر إلى أنهما ممن جمعهما زمن واحد وغاية واحدة، ذاتيا واجتماعيا وسياسيا، لكن ما فرق بينهما وجعل لكل منهما شخصيته الشعرية هو اختلافهما في مذهب القول، أو بتعبيرنا المعاصر، الخيار الجمالي.

ونستطيع أن نأتي بكثير من الأمثلة، سواء في الشعر أم في غيره من أجناس القول وفنون الإبداع، وفي عصرنا نتذكر ثنائيات كثيرة، شعرية وموسيقية وتشكيلية، منها مثلا، ثنائية أحمد شوقي وحافظ إبراهيم والرصافي والزهاوي والسياب والبياتي وعبدالوهاب وفريد الأطرش وجواد سليم وفايق حسن، وقد اخترت جميع هذه الأمثلة، قديمها ومعاصرها، مما يجمع بين طرفيها زمن واحد وغاية واحدة ويفرق بينهما الخيار الجمالي، وفي جميع هذه الأمثلة، في الشعر أو في غيره، نجد من يحاول أن يجعل من ميوله الذاتية، البعيدة عن العوامل الموضوعية، معيارا يعبر عنه بالتعصب، فيؤسطر من يتعصب له، ويحاول محو الآخر، مهما كان حضور الآخر قويا ومؤثرا.

> القصيدة العربية قبل الإسلام هي غير القصيدة التي اقترنت بمرحلة فجر الإسلام، وهي غير قصيدة المدينة العربية

ومما يسترعي الانتباه في مواقف المتعصبين في كل زمان وفي كل مكان، كونهم يعلنون عن مواقفهم ليس باعتدادها مواقف شخصية، بل كونها حقائق لا تقبل النقاش وكل ما يخالفها ليس سوى تجاوز، يماثل تجاوز المقدسات.

وإذا كان الإبداع يتأثر بالمرحلة الزمنية التي يظهر فيها ويعبر عنها، واقعا وتوجهات، ويتأثر كذلك بالجماعة التي ينتسب إليها المبدع، شعبا أو دينا أو طائفة أو حزبا، كما يظهر هذا التأثير في تبني منظومة فكرية ما، وهذه جميعا تجعل منه مؤتلفا أو أقرب إلى أن يكون كذلك، ولا أقول متشابها، لأن التشابه نقيض جوهر الإبداع، غير أنها جميعا لا تحول دون أن يكون مختلفا، بمعنى أن يكون لكل مبدع شخصيته الإبداعية وعمله الإبداعي المختلف عن سواه، مع انتسابه إلى المرحلة الزمنية ذاتها أو ينتسب إلى جماعة أو إلى منظومة فكرية.

غير أن المختلف في الحالات التي أشرنا إليها لا يعني غياب بعض السمات المشتركة في إبداع المرحلة الزمنية الواحدة أو الجماعة الواحدة أو المنظومة الفكرية الواحدة، وهذه السمات المشتركة ذات تأثير بصفحتين، في صفحة منه، يغني سمات التجارب الذاتية ويمنحها خصوصيتها في تمثل الحاضر، وهذا التمثل ببعدها عن أن تكون تكرارا لما سبقها من تجارب، فردية كانت أو مرحلية، أما في صفحته الثانية فهو يجعل من هذه التجارب أقرب إلى الواقع والتعبير عنه في ما هو مختلف عن الماضي وموضوعاته وقضاياه، وعن مقوماته الجمالية في آن واحد.

إن المختلف على صعيد الإبداع، ليس لعبة ساذجة وسطحية واستعراضية، يمكن تحقيقه -المختلف- بخفة ويسر، بل هو نتيجة وعي المتغيرات العامة في الفكر والواقع أو في توقع حدوثها والتبشير بها والتعبير عنها.

وفي جميع الأحوال، إن الإبداع نتيجة جهد ذاتي، يتشكل بتأثير ما هو عام في الفكر والواقع.

فلسطينية بلا دموع في «عائدة إلى أثينا»

بيروت – يستأنف الكاتب والإعلامي الأردني عامر طهبوب في روايته الجديدة "عائدة إلى أثينا" اقتراحه الروائي الرائد في "أوراق هارون" الذي وحّد بين المتخيّل والتوثيق الروائي. حيث عاد مرة أخرى إلى نكبة 1948 المفتوحة على الشتات، ليستذكر تفاصيل الأوجاع ووجوه الوطن الجميل الذي كان، وواجه مخيمات اللجوء ومتاهة المنفى وبطولة البقاء.

أقام طهبوب منظوره الروائي على ذاكرة وطنية مقاتلة جامعة، تصل بين الأجداد والأحفاد، وتمنع عن التجربة الفلسطينية النسيان، وتؤكد أن هوية الفلسطيني من ذاكرته، وأن ذاكرته مزيج من رعب وكفاح وأمل. خلق اجتهاده الروائي ذاكرة ـ ملحمة، وحدت الزمن الفلسطيني في اتجاهاته المتناثرة.

سرد طهبوب أقدار لاجئ أقرب إلى النشيد، يعيش تجربته ويتعلم منها، ويخاطب ماضيه بلغة المستقبل. وانتهى إلى رواية جديدة، تشتق متنها من حياة الفلسطينيين ومن عنف التجربة والقدرة على التعلّم والاحتفاء بكرامة الإنسان.

في الرواية مزج بين الوطن والألم، لكنه لا يقع في "أدب الدموع"، الذي يتلاشى سريعا، ولا هو من باب عطف الحاضر على الماضي أو من الأدب التحريضي، الذي يكتب عن فلسطيني مجهول.

ارتكن طهبوب إلى الجديد، حاور روايات سابقة وأضاف إليها، وساجل روايات راهنة، وطرح عليها أسئلة مفيدة. أكّد في الحالين أن في الرواية الفلسطينية تاريخا مختلفا، يعلّم المؤرخين قبل أن يتعلّم منهم.

وخلافا للأدب الذي اعتاش طويلا، على الرماد والدموع والبطولات المستعارة، جاء طهبوب برواية تستدعي الفرح وتحتفي بالحياة وبفلسطينيين يدافعون عن حقهم في الوجود وتحقيق السعادة.

أضاف طهبوب، وهو يقرأ صفحات الوقائع الفلسطينية، اقتراحا روائيا إلى ما جاء به جبرا إبراهيم جبرا في زمن مختلف، ومنظورا خصيبا يوسع أفق الرواية الفلسطينية، ويدفع إلى قراءة مغايرة لتاريخ محاصر لا يكف عن التجدّد.

ونذكر أن رواية "عائدة إلى أثينا" صدرت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في فبراير 2020.

أما عامر طهبوب فهو صحافي وكاتب وروائي صدر له عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر "في حضرة إبراهيم" (رواية 2018)، "أوراق هارون" (رواية 2019) ، "زمن السرد" (حورات سياسية 2019)، "رسالة القرن: أي مصير ينتظر القدس؟